

رمضان قد اقترب وهم يراقبونني فيه
أشد مراقبة لأنهم يتربصون بي، ولست
أستطيع ولا أريد أن أصوم لأن التدخين
ضروري عندي، ولذلك أحب الأسفار
في هذا الشهر لأن الافطار فيه مسموح
به في الدين، وقد يكون في الامكان أن

أرائهم كما فعلت ذلك مراراً وأتظاهر بالصوم وأفطر
في السر ولكن ذلك يكون صعباً على من بلغ من
الشهرة ما بلغته الآن وأصبح من الأمور العادية أن
يتردد لزيارته عشرات من الناس في كل ساعة من
ساعات النهار ليتبركوا به »

وصلنا إلى مدينة سليمان دون أن يحدث حادث
هام سوى أنني في اليوم الأخير من مسافة السفر
ساعدت صاحبي على خاطر على نقل متاجره المحمولة
على البغال فخرج ظهري في الموضع الذي أصبت به
يوم حدوث الحادث الذي تركت من أجله السقاية
وكان ألي شديداً فلم أستطع الاستمرار في السفر
مع القافلة وصعمت على البقاء حيث كنت حتى يتم
لي الشفاء، وكان قد زال خطر التركان لابتعاد هذا
المكان عن جهات هجومهم، ولم أعد في حاجة إلى
حماية القافلة. وقد كان يجمل بالدرويش صفراً أن يبق
معي ولكن شوقه كان شديداً إلى نبيذ العاصمة
وملاهيها فتركني واستمر مع القافلة

كان المكان الذي تخلفت فيه عن القافلة عند
المقابر، فذهبت إليها وأعلنت قدومي كمادة الدراويش
بصيحات مزعجة صحبها بهذا النداء : « هاك هو ا
هاك هو ا » أي الله أكبر الله أكبر، واستمددت
لابداء ضروب الرياء والخداع إذا قابلت أي إنسان
وفقاً للتعليمات التي تلقيتها من الدراويش

حاجي بابا إصفيهاني

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثالث عشر

حاجي بابا إصاف من مشهور

عند ما خرجنا من مشهد نظرت إليها ورفعت
وجهي إلى السماء ودعوت الله أن ينزل غضبه على
تلك المدينة، ولم يسمنى وأنا أدعو هذا الدعاء غير
الدرويش صفر، وقد كان يشاركنى شـمورى
نحوها. ولكن لو أن رجلاً آخر سمنى أفوه به،
لكان هذا اليوم أسوأ يوم في حياتى. وقال لى
الدرويش : « أنت لا تزال صغيراً يا بنى وستمانى
في الحياة آلاماً كثيرة قبل أن تستفيد من التجارب
ما هو ضرورى لك في الحياة. لا تشك من الصدمة
الأولى فربما كان في شدتها وقايتها لك من صدمات
كثيرة، وستستطيع في المستقبل أن تتجنب المحتسب
حتى ولو كان متكرراً في ثياب امرأة، ولكن رجلاً
في مثل عمري (وأشار إلى الشيب في لحيته) يؤله
أشد الألم بمد ما استفاد من التجارب أن يضطر
إلى مفارقة مدينته وبماود الأسفار خوفاً من حلول
نكبة به »

قلت : « ولكن كان في وسمك أن تبقى
في مشهد غير مبال بالعلماء مادمت محافظاً على الصلاة
والصوم »

فقال الدرويش : « هذا صحيح، ولكن شهر

« كان في عهد هرون الرشيد رجل حلاق بمدينة بغداد يدعى « علي السقا » وقد اشتهر هذا الرجل بخفة يده وإتقانه صناعته ومسرعته حتى إنه كان يحلق الرأس واللحية في طرفة عين دون أن يسيل قطرة من الدم . وكان كل وجهاء بغداد يحلقون عنده، وقد وصل به الكبر والغرور إلى حد الامتناع عن الحلاقة لمن لم تكن لديه رتبة أو لقب وكان يشتري الأخشاب ويبيعها لربائته .

وفي يوم من الأيام جاء أحد الباعة ومعه أخشاب على ظهر حمار فاتفق معه الحلاق على مبلغ معين في مقابل (كل ما على ظهر حماره) فلما سلم البائع تلك الأخشاب طالبه الحلاق بالسرج الذي على ظهر الحمار وبالبرذعة لأن الاتفاق كان يشمل « كل ما على ظهر الحمار » فدهش البائع وقال: « كيف؟ هل سمعت في حياتك صفقة مثل هذه ؟ إن هذا مستحيل »

وبعد مشادة حدثت بينهما أخذ الحلاق السرج والبرذعة والخشب وترك البائع يفعل ما بداله، فذهب إلى القاضي، وكان القاضي من أصحاب الحلاق فحكم له، فاستأنف البائع الحكم إلى قاض آخر أخذ كذلك بنص الاتفاق وصادق على الحكم الأول فلم يسع البائع المسكين إلا أن يرفع أمره إلى المفتي نفسه، فلما لم ينصفه أيضاً كتب شكواه ووقف في طريق الخليفة وهو ذاهب إلى المسجد في يوم الجمعة .

وكان الخليفة مشهوراً بمنايته بقراءة المرائض بالمسجد بعد الصلاة والفصل فيما يستحق النظر منها . ولم تنض ساعة بمسد الصلاة حتى دعى بائع الخشب إلى حضرة الخليفة فدخل وقبل الأرض ودعاه، فقال الخليفة: « لقد قرأت شكواك وفهمتها

وفي أثناء مرضي وإقامتي بالمقابر زارني عدد من النساء فكتبت أحجية وأخذت منهن مقادير وافرة من الفاكهة والابن والمسل . ولما اشتد الجرح اضطررت إلى السؤال عما إذا كان في مدينة سليمان من يستطيع علاجي؛ ولم يكن في تلك المدينة من يعرف شيئاً من شئون الطب غير الحلاق والبيطار، فالحلاقون يعرفون الحجامة وخلع الأسنان، وأما البيطريون فيعرفون أمراض الخيل ومنها ما يشترك فيه الناس فيستشارون في الجراح وجبر العظام وغير ذلك

وكان في المدينة غير حلاقها وبيطارها امرأة عجوز تدعى لملاج ما يميزان عنه من الأمراض. وقد استدعيت كلاً من هؤلاء الثلاثة فاتفقت كلنهم على أن لا وسيلة للعلاج غير السكي بالنار . ولما كان البيطار أكثرهم سراناً على أداء هذه العملية فقد اخترته لأجرائها، فجاء بمقدار من الفحم وبحديدتين وأوقد ناره وأحمى الحديدتين حتى احمر لونهما ثم كواني في ثلاثة عشر موضعاً من ظهري

ومضت مدة قبل أن تنشفي الجراح الأولى والجراح التي أنشأها السكي الذي لم يكن شغافى بسببه بل بسبب الراحة الطويلة

ولما شفيت عزمتم على أن أستأنف رحلتى إلى طهران التي لم أشأ أن يكون المرض ملازماً في بدء عهدي بها، ودخلت المدينة في ساعة الظهيرة وأعلنت قدومى إليها بالنداء المتداد في وسط السوق فاجتمعت حولي الجوع، فلما رأيت كثرة عددهم حدثتني نفسي بأن أقص عليهم قصة أستدر بها جيوبهم كما تعلمت من أحد الدراويش وراجعت ذاكرتى فتذكرت قصة جميلة وبدأت أسردها عليهم وأعينهم مرفوعة وأفواههم مفتوحة ، فقلت :

لصالحتك إياي بمد القضية التي كانت بيننا . اذهب
من هنا وإلا أدقنك الأمرين »

فذهب البائع مفتاضاً إلى الخليفة ورفع أمره
إليه ، فأمر الخليفة بإحضار الحلاق وقال له في جمع
حاشد : « ألم تنفق معه على أن يخلق له ولزميله ؟ »
قال الحلاق : « نعم ولكن هل في الدنيا من
يزامل حماراً ؟ »

قال الخليفة : « وهل في الدنيا من يشتري
خشباً وبرذعة ؟ إحلق للحمار أمام هذا الجمع تنفيذاً
لا اتفاقك وإلا أودعتك السجن »

فاضطر الحلاق إلى الاذعان ، وأمر الخليفة بأن
يؤتى له بالمواشي وبالصابون والماء ، وبدأ الحلاق
بغسل شعر الحمار ويحلق له بمحضور الخليفة وحاشيته
وكان الناس يسرون به ويضحكون منه ، ثم
صار كل أهل بغداد يتحدثون بهذه القصة الدالة
على ذكاء الخليفة وعدالته

الفصل الرابع عشر

الرجل الذي قابل ماضي بابا

تركت مدينة سليمان وأنا مسرور وقد شفيت
جراحي وكنت لا أزال صغير السن جيلاً وكان معي
عشرون « طوما » ادخرتها في مشهد
وكنت إلى ذلك المهد قد جربت بعض التجارب
التي تنغمني في الحياة وعزمت على أن أزرع ثياب
الدرأويش بمجرد وصولي إلى طهران وأن ألبس ثياباً
جميلة وأعيش معيشة راقية

وكنت في أثناء الطريق أنشد بأعلى صوتي قصائد
المجنون في ليلى فقابلني أحد السماء ونشأت بيني
وبينه مودة فتحدثنا وقدم لي بعض ما كان معه من

وإن الألفاظ في جانب خصمك والعدالة في جانبك .
والقانون يجب أن يحدد بالألفاظ والاتفاقيات وهي
قوانين الخصوم يجب أن تحدد بالألفاظ كذلك . ولهذا
السبب يجب أن يتفاد الاتفاق بالألفاظ وإلا لما كانت
له قيمة ولا أمكن الاحتفاظ بالنقطة بين الناس ، لذلك
سيأخذ الحلاق البرذعة والسرّج والخشب ولكن .. »
ثم استدعى البائع وهمس في أذنه بكلمات فبدت على
وجهه علامة الرضى وخرج وهو مسرور »

هنا بدا الاهتمام على وجوه السامعين فسكت
وهم ينتظرون أن أتكلم . ولما طال سكوتي طالبوني
باتعام الحديث فقلت لهم : إنني لا أنعم القصة إلا إذا
دفع لي كل منهم قطعة من النقود . فدفعوها وقلت :
« قال الخليفة همساً لبائع الأخشاب : « اذهب إلى
الحلاق واتبع معه الطريقة التي سأذكرها لك ومتى
رجع الأمر إلى فاني سأنصفك » ثم علمه الطريقة
نفرج البائع راضياً

وبعد أيام ذهب إلى الحلاق بحالة من الود تدل
على أنه لم يكن بينهما أي خلاف وعلى أنه رضى
واقنع بحكم القضاء في النزاع الذي كان بينهما

واتفق البائع مع الحلاق على أن يحلق له ولزميله
الذي سيأتي بعد قليل في مقابل مبلغ تراضيا عليه ،
فوافق الحلاق وبدأ يحلق للبائع ، ثم سأله عن زميله
فذهب وعاد ساحباً حماره وقال : إن هذا هو الزميل
الذي يجب أن يحلق له وفقاً للاتفاق

اغتاظ الحلاق وامتنع عن الوفاء بتمهده قائلاً :
إن هذه خدعة . وقال : « أليس يكفيك أن أضع
يدي على رأسك للقذر حتى أحلق لحمارك أيضاً ؟
إنني لم أحلق قط لأمثالك وما حلقت لك إلا

القائمة قبلت مسروراً لأن الحر كان شديداً في ذلك اليوم .

وكنّا نسير على شاطئ نهر وبالقرب مناضارع
فتح فزع الساعي لحام القرمس وتركه يأكل من
القمح الجديد ثم أخرج من جرابه طعاماً ودعاني
إلى مشاركته فيه وكان هذا الطعام أرزاً بارداً وخبزاً
فاً كنّا بشهوة قوية ، ثم أخرج من هذا الجراب
الذي فيه حذاؤه فجلاً وبصلاً فأغمنا غداءنا وغسلنا
أيدينا في النهر . ثم قدم لي لقافة من التبغ وأخذ
كل منا وسائل الآخر عن رحلاته السالفة ، وعرف
من شكل ثيابي أنني درويش ، فسألني عن تاريخ
حياتي وقصصته عليه ، ثم قص على تاريخ حياته وقال
إنه ساع عند حاكم مدينة « استراباد » وأخبرني
خبراً سري وأدهشني وهو أن عسكر خان شاعر
الشاه قد نجا من أسر التركان ونزل ضيقاً عند
هذا الحاكم

ولم أشأ أن أظهر له شيئاً من سروري وأن
أخبره بأنني أعرف هذا الشاعر لأن تجربتي في الحياة
دلّني على أن كتمان السر من الضروريات لمن
يريد النجاح . وأخبرني الساعي بأن الشاعر أرسله
إلى طهران برسائل وقال إنه شديد الشوق إلى معرفة
ما فيها وأنه لا يعرف القراءة والكتابة وإنه مسرور
للقائي لكي أقرأها له ، وأخرج من صدره تلك الرسائل
ولما كانت المادة في بلاد فارس أن تطوى
الرسائل على شكل مثلثات كالأحجية ولا توضع في
مظاريف بل يكتفي بشئ جزء منها ووضعه بين طياتها
بحيث يسهل فتحها وإعادتها إلى ما كانت عليه دون
أن يظهر أنها فتحت — فقد سررت مما عرضه على
وفتحت الرسائل لأعرف أخبار صاحبي الشاعر

وكانت أول رسالة منها إلى الشاه الذي دعاه
شاعره باسم ملك الملوك وضمن رسالته إليه وصف
الآلام التي تكبدها من معاملة التركان ومن الجوع
والظلم والذل ، قائلاً : إن ذلك كله لم يكن شيئاً
يذكر بجانب ألمه للبعد عن جلالته وحرمانه
التشرف بخدمته . وقال : إن حياته تستمد النور
والحرارة من رحمة الشاه ومن قربه ، وإن أكبر أمل
لديه هو أن يماد إلى منصبه الذي كان غيابه عنه على
الرغم منه وإنه يريد أن يعود إلى التفريد في قصره
كما يتغنى البلبل للورد

وكانت الرسالة الثانية لرئيس الوزارة الشرس
الأخلاق المشوه الخلقة ، ولكن الشاعر وصفه بأنه
كوكب ساطع بين نجوم السماء ، وبأنه روح البلاد
وعمار مجدها . وكانت الرسالة الثالثة بهذا المعنى
لعدوه القديم وزير المالية

أما باقي الرسائل فهي واحدة لزوجته يتكلم
فيها عن مشونهما الداخلية وعن نواياه في المستقبل
ويوصيها بأن تقتصد في ملابسها وأن تعني برقابة
الخدم والعبيد وبأن تعد له ثياباً جديدة . ومن هذه
الرسائل أيضاً رسالة إلى مربّي أبنائه يحثه فيها ويرجو
أن يكون قد علمهم الشعائر والتقاليد ومبادئ
الدين وعودهم المواظبة على الصلاة في مواعيدها
ومرئهم على استعمال الرماح وإصابة الهدف وهم
راكضون على ظهور الجياد

وكانت الرسالة الأخيرة إلى وكيل أعماله وهو
يوصيه فيها بالاقتصاد الشديد وأن يذهب كل يوم
إلى قصر رئيس الوزارة فيطيل من الدعاء له وشكره
لأنه لولا عنايته وهيئته في البلاد لما أطلق التركان
أسيرهم ، ويوصيه أيضاً بأن يكون شديد العناية بأعماله

وبأن يصحب زوجته في عدواتها وروحاتها وبأن يكون مطيعاً لما تأمره به وبأن يتشدد في مراقبة العبيد والخدم عموماً ويخص الرقيق جوهرأ فاذا رابته منه علاقة بإحدى الجوارى جلده وجلدها معه . وأمره بمنع المجازلات التي يخشى منها من الدسائس — وبخاصة اليهوديات — من الدخول منزله . وبأمره أخيراً بأن يدفع جائزة لمن يحمل هذه الرسالة لتكون بمثابة البشري لنجاته من الأسر .

طلبت هذه الرسائل وأعدتها إلى الساعي الذي ظهر على وجهه البشر لما جاء في الرسالة الأخيرة ، وقال إنه تمب كثيراً وخشى أن يأتي متأخراً فصار يقضى أيامه ولياليه ركضاً بجواده حتى أتعبه واضطر إلى تركه في إحدى البلاد التي مر بها على أن يرسل إليه بمد شفائه واغتصب الجواد الذي هو راكب عليه الآن من أحد الفلاحين .

وبعد أن سرنا مسافة أخرى أدرك صاحبي التعب فربط جواده ونام ونظرت إليه وهو مستلق على الحشيش وحدثتني نفسي بأن أسرق منه رسالة الشاعر إلى وكيله وأذهب بها . ولما كنت عارفاً كل المعرفة بحياة الشاعر وزاملته في الأسر مدة طويلة فاني بغير شك أولى من هذا الساعي بأداء رسالته ، ولو كنت مع الشاعر عند ما نجا ما أرسل غيري ليؤديه وأنا أحق كذلك بالجائزة التي تدفع من أموال رجل خدمته وكنت مستعداً للتضحية من أجله بالشيء الكثير لو سنحت لي فرصة لهذه التضحية .

أما الجواد فليس حق الساعي فيه أكبر من حق وفي غير مشقة كبيرة أخذت تلك الرسالة وركبت الجواد وركضت به جاعلاً كل همى أن أسرع حتى لا يلاحق بي الساعي إما على ظهر جواده الذي

قال إنه سيرسل إليه وإما على ظهر جواد آخر يقتصبه وقلت في نفسي : إنني إذا سبقته بمسيرة يوم فاني آمن من شره ، وعزمت على أن أبيع الجواد ساعة وصولي إلى طهران — وعلى أن أبدل ثيابي في الحال فلا يجد الساعي إذا وصل أي دليل ضدي ولا يجد من يصدقه إذا زعم أنني كنت درويشاً وأنى سرقت منه رسائل وجواداً . بل إنه من الصعب أن يعرفني بعد إبدال ثيابي في تلك المدينة

وحصرت تفكيري عند ما وصلت إلى المدينة في الكيفية التي أقابل بها أهل الشاعر وفي الكلام الذي أقوله لهم

الفصل الخامس عشر

ماحي بابا في بيت الشاعر

دخلت المدينة في ساعة الصباح من باب للشاه عبد العظيم وكان هذا الباب قد فتح لوقته وحينه . وذهبت نواً إلى سوق الخيل وهو أقرب مكان إلى هذا السوق وهو يعقد يومياً لبيع الخيل وكنت أعتقد أن جوادى حسن جداً وأنه سيباع بثمان غال لأن تجربتي إياه في أثناء الطريق دلّنتني على أنه ليس به عيب : ولكن تاجراً من تجار الخيل في ذلك السوق أكد لي أنه مليء بالميوب وأننى أكون سعيد الحظ إذا تخلصت منه في مقابل أي مبلغ من المال . وعرض على خمسة طومانات ثمناً . فدهشت لأننى ما كنت أنتظر بعد وصفه المتقدم أن يمرض كل هذا الثمن

ودهش التاجر أيضاً لتسليمي بقوله وقبولي أول مبلغ عرضه .

ولما طلبت إليه أن يتقضى المال أخذ الجواد

هل أنت واثق من أنه لا يزال على قيد الحياة ؟
قلت : « لاشك في ذلك وأما آت من عنده
وسياتيك في القدر رسول آخر من لدنه وسيكون
معه رسائل أخرى باسم الملك والوزراء وغيرهم »
فقال الرجل مخاطباً نفسه : « هذا عجيب ! هذا
مدعش ! ما هذا الخبر الذي وقع على رؤوسنا ؟ أين
الذهب ؟ ماذا أفعل ؟ »

ولما ملك الرجل روعه حاول إفهامي سبب
اضطرابه فقال : « إن كل إنسان يقول إنه قدمات
ويجب أن يكون ميتاً فلقد رأيت زوجته في النوم أن
ضرمها سقط من فمها وأنها تتألم لذلك أشد الألم .
وهذا أكبر دليل على أن زوجها قد مات ... إنه
غير حي ويجب ألا يكون حياً »

قلت : « ظن كما تشاء فإن الرجل موجود الآن
في استراباد ولن تمضي ستة أيام حتى يصل إلى هذه
المدينة ويربككم شخصه »

سكت الناظر وظل واجماً لا يعرف بماذا يجيب
وقال : « لا يدهشك اضطرابي ودهشقي عند ما علمت
بأن سيدي القديم لم يموت ، فإن خبر موته لما شاع
في هذه المدينة أخذ الشاه أملاكه وأمواله وأرقاه
وأثاث بيته وأعطى ذلك كله « لخور على ميرزا »
وهو أصغر الأمراء من أبناء الشاه ، أما ضيعته فهي
الآن مملوكة لرئيس الوزراء ، وأما قصره فهو لميرزا
فاضل ، ولم يبق غير هذا المنزل لزوجته التي تزوجت
من معلم أبنائه ، فقل لي هل لي أن أضطرب من هذا
الخبر الذي تزعم أنك تبشرني به أم لا ؟ »

قلت : « نعم لك أن تضطرب وتحار ، ولكن
ماذا يكون من أمر الجائزة التي أشير إليها في هذا
الخطاب ؟ »

ودفع لي نصف الثمن وعرض على حماراً بالنصف الباق
فأبيت ، فقال إنه سيدفع لي باقي الثمن عند ما أقابله لأول
مرة . ولم يكن لدى متسع من الوقت للمساومة .
وكان غرضي الأول هو التخلص من الجواد فتركته
له وأخذت ما دفعه وكتبت اسمه عندي وانعدت
معه على المكان والزمان اللذين أقابله فيهما لأخذ
الباقى من ثمن جوادي وأما أنوى ألا أعود إلى مقابلته
وهو بنوى ألا يدفع لي شيئاً

ثم ذهبت إلى سوق الثياب فاشتريت (قفطاناً
وجبة وعباءة سوداء) ولبست ذلك في نفس السوق
وخلفت ما كان على من ثياب الدراويش . وقد كلفتني
هذه الثياب الجديدة مبلغاً كبيراً لأنني اضطررت إلى
شراء أشياء أخرى من مستلزمات هذا الزي كالعمامة
والحزام ، ثم سألت عن منزل للشاعر

كان هذا المنزل في حي من المدينة محوط
بأشجار الرمان يدل شكله دلالة واضحة على بدمصاحبه
كان أحد مصراعى بابه مفتوحاً والآخر مغلقاً
وظهر لي أن عدد المقيمين فيه قليل جداً وأن الجائزة
ستكون قليلة أو أنني لن أألمها

صعدت السلم حتى وصلت إلى الطبقة الثانية
فوجدت رجلاً في سن الخمسين يدخن في النليون
وظهر لي أنه الرجل الذي كنت أريد مقابلته وهو
وكيل أعمال الشاعر وناظر زراعته

وصحت عند ما رأيته : « بشري ! عسكر خان
سياني »

فنظر لي الرجل نظرة اندهاش وقال : « ماذا
تعني ؟ أي خان ومتى ومن أين ؟ » فقلت له : إني
رسول من قبله . وقدمت له الخطاب فبدأ على الرجل
فرح متصنع وحزن حقيقي ودهشة وقال لي : « ولكن

كفائي ومواهي وهو كما يلقيه جميع الفارسيين
(خور بالتشديد) أي (حمار بتوكيد اللفظ)

اندفعت في تيار هذه التأملات وأنا في وسط
الطريق المؤدى إلى القصر وظهري مستند إلى الحائط
وقد غات برأسي حرارة الفكر فرأيت نفسي في
الخيال وقد بلغت ما أرجوه من العظمة وحالت رؤيتي
ذلك الجلال دون رؤية المخلوقات الوضيعة التي تسير
في الطريق وأخذ الطريق يزدحم شيئاً فشيئاً فاضطرتني
الجمهير بضجتها وجابتها إلى الالتفات إليها وأخذت
أدفعها عني بكبرياء، ونظرت إلى الناس نظرة احتقار
وزرابة، ودهش الناس من معاملتي إياهم هذه المعاملة
فأخذ البعض يضحك والبعض يسخر، وعنفني للقليل
منهم، وحسبني أكثرهم مجنوناً. ولما رجعت إلى
نفسي بعد ذلك عذرت من اتهمني هذه التهمة لأن
ثيابي وإن كانت جديدة فهي لا تفضل في نوعها
ثياب أدنى الطبقات، فابتسمت من ظهوري بمظهر
العظمة، وسرت إلى السوق لأبدل تلك الثياب
بثياب أرق منها لكي أظهر بمظهر يتفق مع الأمل
الذي أرجوه

وبينا كنت أشق لنفسي طريقاً بين الزحام إذ
رأيت ثلاثة يتشاجرون ورأيت الناس مزدهجين
حولهم ففرقت بعضهم لأفص النزاع إن استطعت
ولكن لسوء حظي وجدتهم الساعي الذي سرقت
منه الجواد، والتاجر الذي بعت له، والفلاح وهو
صاحبه الأول

قال الفلاح : « هذا جوادى »

وقال الساعي : « هذا مرجى ولجأى »

وقال التاجر : « أنا المالك وحدى »

ورأيت الخطر الذي يحرقني ففكرت في النجاة

فقال الناظر : « لا تنتظر مني شيء فأنت
لم تأتني بخبر سار ، ولكن إذا شئت فاصبر حتى يأتى
السيد الجديد »

قلت : « إننى سأعود في يوم آخر وخرجت
من المنزل وأنا مستغرق في تأملاتي »

الفصل السادس عشر

هاجى بابا يفكر في المستقبل ويبدل في معركة
عزمت على أن أتتظر عودة الشاعر وأن أحصل
بوساطته على منصب في الحكومة فأكتب من
هذا الوجه الشريف رزقى ويكون أمانى مجال واسع
للترق والظهور في ميدان الحياة بغير وسائل الفس
والتدليس التي علمتها تجاربي السالفة لأننى قد
سئمت من الاختلاط بالطبقة الدنيا ومن معاشر
الرعاع وطمعت نفسي إلى الرقى والغنى والجاه ولم أجد
في ضمة أصلي وحقارة نشأتى ما يمنع من وصولي إلى
رياسة الوزارة وقلت في نفسي : « ماذا كان إسماعيل بك
تلقى (أى الذهبي) أقرب المقربين إلى الشاه ؟ إنه
لم يكن إلا فراشاً وضيعاً وليس أكثر منى علماً ولا
أفصح لساناً ، وهو قد اشتهر بركوب الخيل ولكنه
لو وقع في أسر التركان كما وقعت في أسرهم لاتضح
حقيقة هذه الشهرة وتبين أننى خير منه في ذلك
أيضاً . وقلت : ومن هو وزير المالية الذى يوزع
أموال الدولة على أصحاب الشاه ولا ينسى نفسه ؟ إنه
ابن بدال وأنا ابن حلاق فليس يفضل أبوه أبى ،
وأنا أفضل من معاليه لأننى أعرف القراءة والكتابة
ومعاليه لا يعرفها . وهو يأكل ويشرب كما يشاء
ويلبس كما يقولون حلة جديدة في كل يوم ويختار
للوه أجمل النساء ، ولكنه مع ذلك لم ينل نصف

إلى صاحبه . وقال للتاجر دفاعاً عن نفسه إن شكواي باطلة لأن الجواد مسروق ولا يمكن إلزامه بدفع باقي الثمن إليّ لأنني لست صاحبه، ولا يمكن أخذ الجواد منه لأنه اشتراه بحسن نية وإنما الشيء الوحيد الممكن في نظره هو أن أدفع تعويضاً لصاحب الجواد

حار مأمور البوليس حيرة شديدة في حل هذه المشكلة وقال إنها عويصة وإنه لا يستطيع الفصل فيها . ولذلك فإنه يتنحى عن نظرها ويأمر بمرضها على القاضي . ولكن أحد الواقفين وهو رجل أشيب نظر إليه وقال : « لماذا تمحار في قضية بسيطة مثل هذه ؟ إن الخلاف بين حاجي بابا وتاجر الخيل يحل على أن يدفع التاجر باقي ثمن الجواد . ثم يدفع حاجي بابا إلى التاجر أجرة إبقائه عنده وإطعامه في هذه المدة »

فصاح كل من سمع هذه الفتوى : « تبارك الله ! تبارك الله ! »

وسواء أكان رأيهم خطأ أو صواباً فقد بهرم ذكاه الرجل ووافقه المأمور على ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا الحل كان خطأ ومضحكاً فقد نفذ لأن المأمور قبله في لحظة كان عقله مختلطاً فيها وأخذت الجواد بعد أن أخذت الباقي من ثمنه ودفعت للتاجر أجرة طعامه ، ثم رددت الجواد للفلاح والسرّج واللجام للساعي وكانت الخسارة كلها على التاجر والمكسب كله لي

الفصل السابع عشر

حاجي بابا يبدأ عهدها جديداً في الحياة

حدث الله على خلاص من هذا المازق واستأنفت

ولكن نظر التاجر وقع على فصاح : « هذا هو الرجل الذي اشتريت منه الجواد »

ولما رآني الساعي انقض على كما ينقض الوحش على فريسته ووصفني بأنني غادر وأنني أص وأنتي وغد قال لي الفلاح : « هات جوادى »

وقال الساعي : « هات سرجي ولجامي »

وقال لي التاجر : « هات مالى »

وقال الجمهور : « خذوه إلى القاضي »

وعيناً حاولت أن أقتع الجمهور بأنني بريء ، وعيناً حاولت أن أطلب الرحمة أو أجد من ينصت إلى ما أقول وصرت أصبح مخاطباً للساعي : « لماذا تنضب ؟ هذا سرجك ولجامك سليمين فخذهما »

وقلت للفلاح : « ولماذا تنضب أنت ؟ هذا جوادك لم يمت ولم يصب بسوء فخذوا حمد الله إذ لم يحدث له ما يفجئك به »

وقلت للتاجر : « ولماذا تنضب أنت ؟ إنك لم تدفع لي إلا نصف ثمن الجواد وكنت تريد أن تعفني وتمطيني حملاً أعرج بالنصف الباقي من الثمن »

وعرضت عليه أن أرد ما أخذته منه ولكنه رفض وأصر على أن أدفع للرجلين الآخرين ما يسكتهما ليصير الجواد ملكه

ولما لم يقبل ما عرضته عليه من أوجه الحلول اتفقت كلتنا على الذهاب إلى مأمور البوليس وتحكيمه وقد وجدناه في السوق عظاماً يجنوده وفي يده عصاه الطويلة المستعدة لضرب الناس دائماً والتي يعتبر الضرب بها بمثابة الاتهام أو إعلان الشكوى

بدأت أنا برفع الأمر فشرحت القضية على حقيقتها وتمسكت بأن تاجر الخيل كان يريد خداعي وأنه غشني في الثمن . وطلبت رد الجواد إليّ لأرده

محاولة إخفاء ثمنه فلم أجده عيباً بمداخلة، ورأيت أنه لا ينقصني إلا خنجر أضعه في هذا الحزام فأصبح مثل سائر الوجهاء ، وطلبت من الدلال خنجر أقدمه لي ووضمته في الحزام فأعربت عن رضاي لأنني أصبحت في هذا الزم كأي حسن رجل في طهران

ولما بدأ دور المساومة وجدت الأمر أصعب مما كنت أتوقع، وأخذ الدلال يقسم لي أنه شريف وأنه ليس مثل سائر الدلالين الذين يطلبون مائة ثم يبيعون بخمسين، وقال إن الثمن الذي يطلبه هو الثمن الذي لا يستطيع أن يبيع بأقل منه . وطلب مني خمسة طومانات للعبة وخمسة عشر ثمناً للشال وأربعة للخنجر فتكون الجملة أربعة وعشرين طوماناً

لما سمعت ذلك أسفت لأنه لم يكن من غير عشرين طوماناً فقلت له إنني لا أريد الشراء وزعت ثيابه وأخذت ألبس ثيابي فاستعملني الدلال قائلاً: « إذا كنت استكثرت الثمن فكيف تريد أن تدفع ؟ »

قلت إنه لا يريد أن يبيع على ما يظهر وإنني لن أدفع أكثر من خمسة طومانات. فرفض البيع بهذا مظهر آلى أشد احتقار ، ورددت إليه الثياب فأخذ يطويها وظهر أن المساومة انتهت بيننا عند هذا الحد ولكن الرجل نظر إلى وقال : « إنني أشعر بمودة نحوك وسأبيع لك بما لا أقبل أن أبيع به لأخي فادفع عشرة طومانات . فرفضت وأصررت على الثمن الذي عرضته . وأخذ يقلل من مقدار ما يطلبه حتى اتفقنا في النهاية على ستة طومانات فدفعتها له وأخذت الثياب

كان أول غرض لي بعد أن اشتريت أن أذهب إلى الحمام فذهبت إليه . وفي أثناء الطريق اشتريت

سيرى إلى سوق الثياب لأشتري منه ثوباً غالباً تنفيذاً للخطة التي رسمتها .

ولما وصلت لأول حانوت طلبت جبة حمراء من الجوخ الثمين لأنني كنت دائماً أشعر بالاحترام إن يلبسون مثل هذه الجبة فنظر إلى البائع من رأسي إلى قدمي : « إن تريد هذه الجبة ومن الذي سيدفع ثمنها ؟ »

فسألتني هذا السؤال وقلت : « لماذا ؟ أريدها لنفسى وأنا الذي سأدفع الثمن ؟ »

فقال : « ولماذا يلبس مثلك مثلها ؟ إنه لا يلبس الجوخ الأحمر غير الميرزا أو الخان ولا شك عندي أنك لست أحدهما »

كاد الغضب يمتلكني فأهينته لولا أن دلالاً مرّ في هذه اللحظة من أمامي ومعه ثياب من جميع الأنواع ، ولكنها مستعملة فذهبت إليه وبالرغم من أن صاحب الحانوت أخذ يدعوني لأنه ندم على إبعادي عنه بالوسيلة التي اتبعها .

ومشيت مع الدلال إلى ركن من الطريق بالقرب من باب المسجد وجلس على الأرض وأخذ يمرض على مامعه من الثياب، فأعجبني ثوب حريري ضرر كس بالذهب وبه زراثر ذهبية . ولما سألته عن ثمنه أقسم لي أن الثوب كان لتدب من ندماء الملك وأنه لم يلبسه إلا مرتين فقط . ولأجل أن يغريني بشرائه وضع هذا الثوب على وأخذ يدور حولي ويقول : « ماشاء الله ماشاء الله ! » فعزمت على شراء الثوب وطلبت منه شالاً من الكشمير لأجمله حزاماً أقدم لي شالاً قديماً به كثير من الثقوب وأقسم أنه كان مملوكاً لسيدة من سيدات القصر الملكي . وقال إنه سيبيعه بثمن زهيد . فأخذت الشال وجعلته حول خصري

الفصل الثامن عشر

عسكر خانه يعود من الأسر - مرقف ما بنى بابا مشيت توأ إلى بيت عسكر خان فرأيت وأنا في أول الطريق إليه جمهوراً كبيراً محتشداً عند بابه وعلمت أنه وصل لساعته ، وأنه دخل البيت من النافذة بدلاً من الباب في وسط احتفال لأن هذه هي المادة عند ما يرجع إلى منزله رجل كان المظنون أنه قد مات

زججت بنفسى بين الجمهور ودخلت إلى الغرفة التي كان الشاعر موجوداً بها وهنأته بوصوله سالماً في أحر لهجة ودية ، ولكن الشاعر لم يبرفني فمرفته بنفسى ولم يكذب بصدق أن الرجل الذي أمامه الآن في أجل ثياب وأرقاها هو ذلك الوغد القذر الثياب الذي كان معه في أمر التركان

وكانت الحجرة مزدحمة بالناس من جميع الطبقات ، وكان بعضهم في نهاية السرور بمودته سالماً والبعض في نهاية الحزن لهذا السبب . وكان من الفريق الأخير « ميرزا فاضل » ولكنه كان من أكثرهم رحيماً به وإظهاراً لمودته . وقال له : « لقد

كان مكانك شاعراً وكانت عيوننا متشوفة إليك ثم حدثت ضجة بالمكان وفتح الباب ودخل ضابط مندوب من قبل الشاه وأمر عسكر خان بأن يلبس الثياب التي جاء بها من السفر ويذهب إلى الشاه . فتفرق الموجودون وذهبت في جملة الداهيين وفي عزى أن أعود في اليوم التالي ، وفي طريق قابات ناظر الزراعة فقلت له : « هل رأيت أن كلاي كان صادقاً وأن عسكر خان لم يزل على قيد الحياة .

هذه أخضر وقيصاً أزرق وسروالاً قرمزيًا ووضعت ذلك كله في متدبيل واستأنفت سيرى إلى الحمام لم يلتفت أحد إلى ساعة دخولي لأن رجلاً مثلي في الثياب التي كانت لا تزال على لا يستثير اهتمام الناس . وكنت أعزى نفسى بأن هذه الحالة لا تلبث إلا ربها أغير هذه الثياب بثيابي الجديدة وأن الناس في داخل الحمام لا يتفاضلون تفاضلهم في الطرقات بل تفاضلهم فيه بطول القامة وعرض الأكتاف ومظاهر القوة والشباب . وكنت في ذلك أفضل الوجودين في الحمام ونلت إعجاب من لو رأي في الطريق لا يزداني . واستدعيت دلاكين لتدليكي فوقاً بالقرب مني ينتظران أوامري ، فأمرت أحدهما بحلاقة رأسي وبأن يصبغ شعر لحيتي وشاربي

ولما بدأ في التدليك أخذ يكرر إعجابه باتساع صدري ، وحلاني تخيلي الحسالة التي سأكون عليها بعد أن ألبس الثياب الجديدة على التظاهر بأنني تمودت سماع الثناء والاصفاء إليه . وقال لي الدلاك إنني جئت في ساعة سعيدة لأنه فرغ لساعته من خدمة خان كبير يلبس خلعة أنعم بها عليه الشاه وأن هذا الخان لم يأت إلى الحمام إلا بعد أن أخبره المنجمون بأن هذه ساعة مباركة تناسب الاستحمام وبعد أن فرغت من الاغتسال والتدليك ذهبت إلى الغرفة التي فيها ثيابي فلبست جديدها وطويت القديم . وكان الزهو بكاه يقتلني كلما وضعت على جسدي قطعة منها

وأخيراً جاء الدلاك بالمرآة وهذا هو الرض عندما لانتهاء عملهم ومطالبتهم بالأجر فرجلت شمري ورفعت طرفي شاربي إلى عيني ودفعت له الأجر بسخاء ، وخرجت أمشي مشية الرجل الكبير الأهمية

وإيناسه إياي ما شجمني على أن أطلب منه تعييني في خدمته أو التوسط لدى واحد من معارفه لأشتغل لديه ، وشرحت له حالتي بالتفصيل وذكرت له كل الحوادث التي حدثت لي . وقد استكشفت أن سبب اضطراب ناظر الزراعة عندما علم بعودة سيده هو أنه بدد كثيراً من أمواله عند ما اعتقد أنه قد مات . ورجوت أن أنال عمله ، فأخبرت الشاعر بكل ما سمعته عن هذا الناظر الخائن ، ولكنني مع الأسف لم أنجح فيما كنت أريده إما لأن الشاعر لم يثق بقولي وإما لأن الناظر استطاع إقناعه بأنه بريء . وبقي الرجل في عمله وبقيت منتظراً ما يجود به علي صاحبي في الأسر صدقة وإحساناً .

وأخيراً طلبني عسكر خان في صباح يوم من الأيام وقال لي : « حاجي بابا، أيها الصديق ، تعرف مقدار ما أجنه لك من الشكر على ما لقينته من عطفك وكلانا واقع في أسر التركان وقد آن الوقت الذي يجب فيه علي إظهار عرفاني للجميل ، لقد تسكمت بشأنك مع ميرزا احمد « حكيمباشي » رئيس أطباء الشاه وذلك بمناسبة ما علمته من احتياجه إلى تابع . ولا شك أنه إذا وجد فيك ماله فانه سيعلمك صناعته فتجد الطريق المؤدى إلى اللقي فاذهب إليه وقل له إنك أنت الرجل الذي حدثته عنه فانه سيفتيك في الحال »

لم أكن ميالاً من قبل لزاولة الطب وذكرت للقصة التي سمعتها من الدرويش فشعرت نحو الأطباء باحتقار شديد . ولكن حالتي كانت حالة اليأس لأنني كنت قد أنفقت آخر دينار مني . ولم يعد أمامي غير أن أقبل أي عمل حتى ولو كان حرفة الطبيب .

فأجابني : « نعم لقد صدقت فهو لا يزال على قيد الحياة ولكن الله كبير » ثم كرر الجملة الأخيرة مراراً وتركني وقد بدا عليه أنه يشمر بالبؤس والحزن الشديدين . وأمضيت يومى كما يقول المثل في تشييد قصور في الهواء . وجيت الأسواق لمaintenance ما عزم على شرائه بعد أن تتحقق أحلامي ودخلت المساجد لأداء الصلاة والدعاء لله أن يوفقني إلى تحقيقها .

وفي أحد المساجد وجدت كثيرين ممن لا عمل لهم ولا شاغل يشغلهم غير التماسول عن أخبار الناس والتحدث بها وقد سمعهم يشكمون عن عودة الشاعر عسكر خان وعن المغالبة التي قابله بها الشاه فقال البعض : إن جلالتة قال عند ما سمع أنه لا يزال على قيد الحياة إن شاعره قد مات وإن الذي يدعى هذه الدعوى لا يمكن أن يكون إلا كاذباً وإن جلالتة سيماقبه على ذلك . وقال البعض إن جلالة الشاه لم يقل ذلك وإنه أعرب عن سروره بعودة شاعره وأعطى لمن بشره بهذا الخبر عشرة طومانات . ولكن الكثرة كانت متفقة على أن جلالتة لم يسر بعودة عسكر خان لأنها ستخل بالنظام الذي كان قد وضعه لتقسيم تركته

ولكن عسكراً كان يعرف حب مولاه للشعر فنظم قصيدة بديعة وصف بها حالته في الأسر ومدح الملك بما لم يمدح به ملك من قبله ، وإن الشاه سمع منه هذه القصيدة فطرب كل الطرب وأمر بأن يعلا فوه ذهباً وخلع عليه خامة سنبة

لما سمعت الخبر الأخير خرجت من المسجد لأهني الشاعر وأنال جائزة منه على هذه التهنئة . وقد وجدته ضاحكاً مستبشراً ورأيت من عطفه على

الفصل التاسع عشر

دامي بابا بصير تابعا للطبيب الشاه

جلس الطبيب وأمرني بالجلوس فجلست مظهرأ ما يجب إظهاره من الاحترام والرهبة عندما يتشرف حقير مثلي باكرام عظيم كطبيب الشاه . وقال لي إن الشاعر كله في شأني ، وقال إنني رجل يمكن الاعتماد عليه . وإنني قوى صبور وإنني جربت تجارب كثيرة في الحياة وإن لي اقتداراً خاصاً على كتمان الأسرار .

طاطأت رأسي سراراً وهو بكأمني وكنت شديد الحرص على ألا تظهر قدماي فأخفيتهما تحت طرف الثوب واستمر الطبيب يقول : « وما دامت هذه صفاتك فستكون حاجتي إليك كبيرة . وليس يصلح لخدمتي من لم تتوافر فيه صفة من هذه الصفات . وأنا واثق بما يقوله عسكر خان ، فإذا برهنت أنك عند ظنه فيك فستجد عندي فوق ما يرضيك » ثم أدفاني منه وقال لي بصوت خافت كأنما يخشى أن يسمعه إنسان : « لقد جاء أخيراً سفير من أوروبا وفي حاشيته طبيب كبير وقد مال هذا الكافر شهرة واسعة وهو يعالج مرضاه بطريقة جديدة علينا . وليس في وسعنا أن نتعلمها الآن . وجاء بصناديق مملوءة بمشآت الأدوية التي لا نعرف أسماءها ، وهو يدعي أنه يعرف أشياء يجهلها جميع الأطباء الفارسيين ، ولا يفرق بين الأمراض الحارة والأمراض الباردة ، ولا بين الأدوية الحارة والأدوية الباردة . وهو لا يتبع نظريات جالينوس وابن سينا بل يقول إن علمهما قد أصبح الآن علماً قديماً . وأعرب من ذلك أنه يدعي القدرة على منع مرض

وفي اليوم التالي ذهبت إلى منزل (الحكيمباشي) وهو مجاور لقصر الشاه ودخلت حديقته الواسعة المهمة فوجدت فيها على الجانبين غرفاً بها أسرة للمرضى ووجدت غرفة كبيرة أمامها أناس كثيرون فعلمت أنها غرفة الطبيب . وبقيت منتظراً عند بابها حتى يأتي دوري فيؤذن لي بالدخول

ولم يكن كل المنتظرين من المرضى بل كثير منهم من أصدقاء الطبيب أو أصدقاء أصدقائه ، وقد جاءوا لأمر عادية لا شأن لها بحرفته . والمادة في البلاد الفارسية أن يستقبل الأطباء أصدقاءهم في أوقات عملهم وأن يقدموا مقابلاتهم الشخصية على مقابلات المرضى . فضلاً عن ذلك فإن موظفي القصر الملكي كانوا يدخلون حجرة الطبيب بغير استئذان ويطلبون المكث فيها والمرضى في انتظار خروجهم عند الباب

كان هذا الطبيب متقدماً في السن ، عيناه غائرتان في وجهه ، وعظام وجهه كبيرة ، وشعرات لحيته ورأسه قليلة . وكان محدودب الظهر من كبر السن قليل الكلام يبادر مرابطه بأسئلة قليلة متناهية في الاختصار والايجاز ، ويظهر الاستعزاز إن كان الجواب طويلاً ، وكان يبدو على وجهه أنه يفكر في كل شيء إلا الشيء الذي يكون أمامه

ولما جاء دوري أخبرته بأن أنا الذي كله الشاعر من أجلى فحدد في نظره لحظة قصيرة ثم أمرني بالانتظار لأنه كان يريد أن يكون كلامه مهيأ على انفراد . وبعد أن انتهى من عمله مع الناس ناداني فذهبت معه إلى غرفة ضيقة ملحقة بمكتبه وهي التي يدعونها « الخلوة »

الكافر لدولة الوزير ، ولكنني متى رأيته أخبرت جلالكم عن عناصره . ولكنني أقول منذ الآن إن الرض كان سيبه تلبس الشيطان بجسم الوزير بدليل أن الشفاء جاء على يد طبيب كافر لا يصدق بديننا ولا يؤمن بديننا

قالت ذلك لكي أززع الثقة التي نالها هذا الطبيب ، ولكنني كنت في نفسي شديد الرغبة في معرفة الدواء الذي استعمله . وأنت قد جئت لحسن الحظ في الوقت المناسب . وسأعتمد عليك في مساعدتي . والذي أريده منك هو أن تتصل به وتخدمه حتى تأخذ عنه علمه . ولكنني أريد قبل كل شيء وفي أقرب وقت أن تعرف لي الدواء الذي أعطاه لرئيس الوزارة لكي أخبر الشاه عنه . اذهب الآن إلى السوق فاشتر خساً وخياراً وكل منهما مقداراً كبيراً وتعارض إن لم يصبك المرض حتى يبدو لمن يراك أنك صرت بالحالة التي كان عليها الوزير واستدع الطبيب الأوربي فانه سيعطيك نفس الدواء الذي أعطاه للوزير فلا تتجرعه ولكن جئني ثم تناوله بعد أن أخضه

أزعجني هذا المشروع الخطر فقلت : « إنني سأتابع كل ما تشير به ولكنني أخشى ألا يقبل علاجي ولا تستطيع أنت أن تداويني أو أن يكون الرجل ذكياً فيعطيني دواء آخر ، وقد سمعت أعاجيب عن الأطباء الأوربيين ، ومع ذلك فداني على الطريقة التي أصل بها إليه »

فقال : « إن عوائد هؤلاء الفوم وأخلاقتهم تنافي عوائدنا وأخلاقتنا مناقاة تامة . وسأخبرك بشيء عنهم يعطيك فكرة عن مقدار التناقض بيننا وبينهم . إنهم بدلاً من أن يخلقوا دواءهم ويطلقوا لحام وشواربهم — كما نفعل نحن — يخلقون الحي

الجدري بجرح يحدته في الدراع ويضع مادة فيه يقول إنه يستخرجها من البقر . ونحن لا نريد أن نسمح له بأخذ القوت من أفواهنا ومزاحمتنا في حرفتنا وفي بلادنا . ومن أجل ذلك أشعر بحاجة كبيرة إلى مساعدتك

ولقد مرض رئيس الوزارة منذ يومين بعد أن أكل مقداراً كبيراً من الخس والخيار . وأنا لم أعرف مرضه . وعلم السفير بمرضه فأرسل إليه طبيبه . ولكن كان بين رئيس الوزارة وبين السفير عداوة على ما يظهر لأن السفير يلح في طلب امتياز سياسي لدولته ويرى رئيس الوزارة أن في إجابة ذلك الطلب مساساً بمصالح فارس ، فرفضه وغضب السفير من الرفض ، ويظهر أن هذا المرض جاء فرصة مناسبة للمصالح بين شخصيهما بغض النظر عن موضوع الخلاف فأرسل السفير الطبيب مجاملة . ووجب على رئيس الوزارة أن يجامله كذلك بالأمر يرد الطبيب . ولو أنني علمت بهذا الأمر في الوقت المناسب لاحتات بأية حيلة لمنعه ، وقد سمعت أن هذا اللعين قد أعطى رئيس الوزارة قطعة واحدة من دواء أبيض عديم اللون والرائحة تخففت ألمه . وكان تأثيرها قوياً عجيباً وقد دهش رئيس الوزارة حتى صار لا يتحدث إلا عن قدرة هذا الطبيب . وتسامع كل أهل القصر بذلك حتى إن الشاه نفسه أظهر دهشته وإعجابه ، واستدعى رئيس الوزارة ليقص الأمر على مسمعه . وكنت موجوداً في ذلك الوقت . فأمرني الشاه أن أبين ما أعرفه عن هذا الدواء وعن العلة ، فبدلت كل ما في وسعي لاختفاء اضطرابي ، وقت فقبلت الأرض بين يدي بجلالته وقلت : « إن نفسي فداك يا ملك الملوك إنني لم أر ذلك الدواء الذي أعطاه الطبيب

مريضاً بالفعل، فاذهب في الحال وكل أكثر ما تستطيع
أكله من الخس والخيار وهات لي الدواء الذي
سيمطيه لك في هذه الليلة »

ثم منعتني عن الاستمرار في مناقشته فأمسك يدي
وأخرجني برفق من حجرتي فخرجت وأنا لا أعرف
هل أضحك أم أبكي من هذا الاتجاه الذي اتجهت
حياتي فيه ومن اضطراري إلى استدعاء المرض
لنفسى دون أن أعرف ماذا يكون أجرى على تحمل
آلامه

وبعد أن ابتعدت عن حجرة الطبيب وقفت
وحدثتني نفسي بأن أعود إليه وأساومه على الأجر
ولكنني لما عدت إلى الحجرة لم أجده فيها، ويظهر أنه
صعد إلى منزله، فاضطرت إلى الذهاب حيث وجهني

الفصل العشرون

مامي بابا بخرع طبيبين

سألت عن منزل السفير وأنا أنوى أن أنفذ
ما أشار به الطبيب ولكنني كنت أعتقد أن أكل
الخيار والخس وإن أثر في معدة الوزير المهرم فلن
يؤثر في معدة قوية لشاب مثلي

على أنه لم يكن أمامي بد من الحصول على دواء
الطبيب الأوربي بأية حيلة، وقلت لنفسي إنني إذا
ادعيت المرض فإن هذا الطبيب سيعرف الحقيقة
ويطردني من منزله ففضلت أن أزعم أنني خادم لحرم
الشاء وأختلق قصة أنال بها ما أريد. وخرجت
على حانوت لرجل يبيع الثياب فاستأجرت منه ثوباً
كالثياب التي يلبسها في العادة خدام القصر الملكي
وتصنعت حالة تدل على أنني لست خادماً عادياً بل
من رؤساء الخدم، وتذكرت ما قاله لي ميرزا أحمد

والشرارب ويتركون شعر رؤسهم نامياً كالنساء
ولا يأكلون بأيديهم كما نفعل نحن بل يأتون بقطع
من الحديد لها عدة أطراف محدودة وينقلون بها
الطعام من الأطباق إلى أفواههم غير مباليين بأن
يجرحوا أنفسهم أو شفاههم، وهم لا يخرجون من
لبس ثيابهم الضيقة التي تظهر كل جزء من أجسامهم
كأنما أحدهم يمتشي عارياً في الطريق، وهم لا يصلون
خمس صلوات في اليوم مثلنا ولا يرون في تركهم
الصلاة إثماً ولا معصية. وصفوة القول أن كل شيء
عندنا مخالف لكل شيء عندهم، وهم أقدر ناس خلقهم
الله لأنهم لا يعرفون النجس من الطاهر، فهم
يا كآرون لحم الخنزير ويشربون الخمر ويدفنون الميت
دون أن يغسلوه ليظهر ويفعلون كل شيء ولا يطهرون
بعده أجسامهم بالماء »

قلت : « نعم لقد سمعت أن كل ذلك من صفاتهم
وسمعت أيضاً أنهم حتى فإذا أظهرت لأحدهم الشك
في قوله أو قلت إنه كاذب حاربك من أجل ذلك
حتى يقتلك أو يموت »

فقال الطبيب : « هذه أيضاً إحدى الصفات
التي سمعتها عنهم وأحذرك في معاملتهم من شيء هام
وهو إياك أن تقول لأحدهم على سبيل المجاملة كما يقول
أحدنا للآخر : « هذا الشيء لك أو هو تحت
تصرفك » فانه سرعان ما يعاملك بقولك فيأخذه،
فهم لا يعرفون هذه المجاملات، ولا تقل لهم إلا الحقيقة
فإن ذلك يلائم طباعهم »

قلت : « إذا كان هذا شأنهم فهل تظن أن
الطبيب سيفقر لي كذبي عليه واستدعاني إياه لكي
يعالجني من المرض وأنا لست مريضاً ؟ »

فقال الطبيب : « كلا يا حاجي بابا، إنك ستكون

الخارقة للمادة في مدة حكمه ، وإن سيدات القصر
سمعن باسمه فقلن إنهن ان يتداوين عند غيره إن
مرضن ، وإن جاريته الشركسية مريضة بالفعل وإن
« الأغا بائي » أرسله بأمر خاص من جلالة الشاه
لكي يحصل على دواء مماثل للذي أخذه الوزير .
وختمت قولي بطلب هذا الدواء

ظهر لي أن الطبيب أخذ يفكر فيما سمعه مني
وقال لي بمد مدة وجيزة : إنه ليس من عادته أن يعصف
دواء لمريض لم يره لأن ذلك قد يكون أكثر ضرراً
للمريض من عدم العلاج بتاتاً ، وإنه على استمداد
لمعالجة الجارية إن سمح له برؤيتها . فأجبت على ذلك
بأن رؤية أوجه للسيدات ممنوعة قطعاً ، وأنه عند
الضرورة القصوى يسمح بحس النبض دون رؤية
الوجه على شرط أن تكون اليد مستورة برداء
قال لي الطبيب إنه لا يستطيع معالجة المريض
بحس نبضه فقط بل يجب أن يري لسانه أيضاً .
فقلت له : إن رؤية ألسن السيدات أمر لا عهد
لنا به في البلاد الفارسية ، وإن تحقيق هذا الشرط
يستدعي صدور أمر خاص من الشاه ولكن الذي
يعرض أسراً كهذا على جلالاته يمرض لسانه للقطع
عقاباً على جرأته .

قال لي الطبيب : « تذكر إذن أنني إذا أسلمت
لك الدواء فأنما أسلمه على شرط ألا أتحمّل مسؤولية
من تأثيره لأنه قد يقتل بدلاً من أن يشفي »
فلما أكدت له أن ليس هناك مجال للخوف
فتح صندوقاً كبيراً مملوءاً بالمقايير وأخرج ذروراً
أبيض وضمه في غلاف أبيض صغير ودفعه إلي
فسألته عن نوع هذا الدواء وعن تأثيره ، فقال لي
بغير التحفظ الشديد الذي يديه أطباء فارس —
كل الذي أردت أن أسمعه . ولو كان المسئول طبيباً
فارسيّاً لما فهمت من كلامه غير أسماء أبقرات وابن

فاقتربت من باب السفير وأنا خائف متردد
وجدت للقسم الذي يشغله الطبيب في منزل
السفير مملوءاً بالنساء الفقيرات وكل واحدة منهن
تحمل طفلاً على ذراعها ، وقبل لي : إنهن جنن ليفسدن
الأطفال وقاية من الجدري . ويظهر أن أسباباً
سياسية حثت السفير وطيبه على التطوع لخدمة
الطبقات الفقيرة في إيران

لما دخلت الغرفة وجدت رجلاً في وسطها أمام
منضدة خشبية عليها أكداش من الكتب وآنية
فيها المادة التي يستعملها في التطعيم وكانت ثيابه مثل
الثياب التي وصفها لي ميرزا أحمد والتي رأيت بعض
الأوربيين يرتدونها

وكان حامر الرأس مما يدل على عدم احترامه
الناس ، وحول رقبته قطعة من القماش كأنها يريد
أن يخفي مرضاً بها . وثيابه شديدة الالتصاق بجسده
خصوصاً الجزء الأسفل من ثوبه لأن شكله فيه كان
غير لائق ، وهو مناف كل المناقاة للأدب . وكان
حذاؤه في قدسيه فلم يخلمه ولم يبال بالسجاجيد الثمينة
التي هو واقف فوقها على ، النقيض منا نحن الفارسيين
فاننا نخلع الحذاء في داخل الغرف

وجدت هذا الطبيب يتكلم بلفتنا وسألني ساعة
رآني بتلك اللغة عما أريده ، فوجدت الواجب بقضي
بتجميل الرد جهد الطاقة فقلت له : إن شهرته قد
انتشرت في جميع البلاد الفارسية بأنه لقمان زمانه
وأن ليس في هذا العصر من يضارعه أو تحمده
نفسه بمناقسته

فلم يجبني بحرف عما قلته ، ويظهر أيضاً أنه لم
يطرب من هذا الثناء كما بطرب أحدنا عندما يسمع
مثله . وقلت له : إن الملك نفسه علم بتأثير دوائه في
نفس الوزير وأمر مؤرخيه بأن يقيّدوا في تاريخ
البلاد هذا الحادث على اعتبار أنه من أعجب الأشياء

فاسياً كل هذه الأمور الأولية التي تعلمتها في أول
عهدي بمدرسة الطب »

وكان في جملة ما قلته له : إن الزئبق يدخل في
تركيب هذا الدواء

فقال : « وهل يريد هذا الكافر اللعين أن
يسم أجسامنا بالزئبق وبضيع بهذا الجهل شهوتي
الواسعة التي لم يحلم بمثلها أبوه ؟ إن الزئبق بارد
والخس والخيار باردان أيضاً ، فهل النتائج يذيب النتائج ؟
إننا لا نعالج الأمراض الباردة إلا بأدوية حارة
والعكس بالعكس ، وهذا الحمار لا يعرف المبادئ
الأولية في علم الطب فيجب ألا نسمح له بالضحك
على ذقوننا بهذا الشكل »

وقبل أن يتم ملاحظاته جاء رسول من قبل
الشاه بدعوه إليه ، فأسرع في لبس الثياب التي يقابل
بها جلالاته وأخذ معه الدواء وذهب مسرعاً مع الرسول
« يتبع » « عبد اللطيف الشاه »

سينا ولقمان ، لكثرة ما يلجأون فيه من الإبهام
والتموض .

ولما وعيت ما قاله شكرته ورجعت في الحال إلى
ميرزا احمد طبيب الشاه وقد كان ينتظر عودتي بصبر
نافذ ، وتظاهرت بأنني مريض لأوجه أنني أكلت
الخيار والخس وأنني بسبب ذلك مرضت كما مرض
الوزير فتأثر الطبيب الفارسي من رؤيتي وأظهر لي
ما يشبه الشفقة .

قلت له بألفاظ متقطعة كالربض الذي أشرف
على الوفاة : « لقد دخات عيادة ذلك الطبيب وانبت
أواصرك فأنبجدي وأنا منتظر كرمك »

فحاول ميرزا احمد أن يحصل مني قبل كل شيء
على الدواء الذي أتيت به ولكنني قبضت يدي
وتركته يفهم أنني أنتظر جزاء مريباً وأنني مصمم
على ابتلاع الدواء لأشفي من مرضي إذا لم يعجل
بمنحي ما أستحقه من التمويض

وكان خوفه شديداً من عدم الحصول على الدواء
ومجزئه تبعاً لذلك عن إجابة الشاه على ما سأله عنه
فقدم لي قطعة من اللقد الذهبي وتلفف مني ليحصل
على هذا الدواء أكثر مما يتلفف عاشق أمام حبيته .
وأردت أن أزيد في التصنع حتى أحصل منه على
قطعة ذهبية أخرى ولكنني رأيت الطبيب يجهز لي
دواء ليشفي من المرض الذي أنظاه به وخشيت
من دوائه ، فلت إلى الانتهاء من تمثيل هذا الدور
وتركت له الدواء .

فلما أخذه نظر إليه باهتمام شديد وقلبه بين
يديه وظل كذلك مدة طويلة دون أن يبدو عليه أنه
عرف شيئاً عنه فقلت له : إن الطبيب الأوربي أخبرني
عن المادة التي صنع منها الدواء وعن طبيعته وتأثيره .
فأصغى إلي باهتمام شديد ثم قال : « كأني كنت

المجموعة الأولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى
العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروش ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين
موضوعة ومنقولة .

النن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد